﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾ [النحل: 107]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حـبُّ الكافرين للدّنيا وتركُهم الآخـــرةِ سببٌ لـغـضـب الـلـه عليهم

لمّا توعّد الله تعالى في الآية السابقة المرتدين بالغضب والعذاب العظيم بقوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ جاءت هذه الآية ببيان سبب استحقاق المرتدّين لهذا العذاب العظيم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ الآية.

ولمّا حكم الله تعالى بِغَضَبه وبعذابه العظيم على الكافرين، الذين شرحوا بالكفر صدورهم - بعد أن لامس الإيمان قلوبَهم - حُبًّا للكفر لا عن جهالة، في الآية السابقة؛ أتْبَع هنا بذكر سَبَبَيْ ذلك الحكم عليهم، وهما: إيثارهم الحياة الفانية على الباقية، وتَخْلية الله تعالى إياهم إلى اختيارهم، وعدم معونتهم في التخلُّص منه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾: أحْبَبْتُ الشَّيْءَ فهوَ مُحَبٌّ، واسْتَحْبَبْتُهُ مِثْلُهُ، والاِسْتِحْبابُ: أن يتحرّى الإنسان في الشيء أن يحبه، ويكون بِمَعْنَى الاِسْتِحْسانِ[1]، و"أحبَبْته نَقيضُ أبغضته، والحبُّ والحِبَّةُ بمنزلة الحبيب والحبيبة"[2]، و"﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [إبراهيم: 3]، أي: يُؤثِرونَها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: 17]"[3]، و"استحبَّ الشَّيءَ: قبِله، وفضَّله واستحسنه، وآثره، واستحبَّ الشِّعْرَ على القصَّة: اختاره، وأحبَّه أكثرَ منها، وفضّله

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (حبب).
(2) الخليل، العين: (حبب).
(3) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (حبب).

عليها ... ما رغَّب فيه الشّارع ولم يوجبه، عكس مكروه: أمر مستحَبّ"[1].

مادّة الاستحباب إذن تدور حول معاني: الاستحسان، والإيثار، والقبول، والتفضيل، والاختيار؛ وذلك كله واقع من هؤلاء الكفار بالنسبة للكفر دون الإيمان.

2) ﴿لَا يَهْدِى﴾: "الهاءُ والدّالُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ: أصْلانِ: أحَدُهُما: التَّقَدُّمُ لِلْإرْشادِ، والآخَرُ: بَعْثَةٌ لَطَفٍ، فالأوَّلُ قَوْلُهُم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً، أيْ: تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هادٍ، قالَ:

إذا كانَ هادي الفَتَى في البِلا *** دِ صَدْرَ القَناةِ أطاعَ الأميرا

وَينْشعبُ هَذا فيُقالُ: الهُدَى: خِلافُ الضَّلالَةِ، تَقولُ: هَدَيْتُهُ هُدًى ... والأصْلُ الآخَرُ الهَديَّةُ: ما أهْدَيْتَ مِنْ لَطَفٍ إلَى ذي مَوَدَّةٍ، يُقالُ: أهْدَيْتُ أُهْدي إهْداءً"[2]، فقوله تعالى هنا: ﴿لَا يَهْدِى﴾، أي: لا يَدُلُّهم، ولا يُرشدهم، بل يخليهم في ضلالهم يتخبّطون.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

بيّن الله تعالى في هذه الآية أنَّ "ذلك الوعيد السابق بإنزال الغضب والعذاب العظيم عليهم منه تعالى بسبب إيثارهم الدنيا وزينتها، وتعلقهم بمطامعها ومفاتنها، وإعراضهم عن الآخرة"[3]، فاختاروا الفانية، وآثروها على الباقية.

إيثارُ الحياةِ الدّنيا على الآخرة سببٌ للكفر المؤدّي إلى غضب الله وعذابِه الأليم

"وذلك الوعيد أيضًا بسبب أنَّ الله تعالى لا يهدي القوم الكافرين الإيمانَ، على سبيل القهر والإلجاء"[4]، ولا سيما هؤلاء الذين ذاقوا شيئًا من حلاوة الإيمان، ثم رجعوا إلى خبث الشرك ووحله؛ "لأنه

(1) أحمد عمر، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (حبب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدى).
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 684.
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 684.

ثبت في عِلْمه المحيط اختيارُهم الكفرَ على الإيمان وإصرارهم عليه، فلِهذا لم يَعصمهم من الزيغ، ولا مما يؤدّي إليه من إنزال الغضب عليهم والعذاب العظيم بهم"[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الاستسلامَ للنفس في تتبع الملذّات الدنيويةِ سببٌ للانحراف، وأنَّ هؤلاء القومَ لمّا اختاروا الكفرَ على الإيمان منعَهم اللّهُ الهدايةَ فلم يهدهم؛ لأنَّ الكفر وصفُهم، وترشدُ إلى أنَّ إيثارَ الدنيا على الآخرة طريقُ الكفر وسبيل الضلال والهلاك[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصْل هذه الجملة عمّا قبلَها:

فُصِلَتْ هذه الآية عمّا قبلَها؛ لأنّها واقعة موقع التعليل، "وإشارة ذلك إلى مضمون قوله تعالى: فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم"[3]؛ فكأنّ سائلًا سأل: بماذا استحقّوا هذا الغضب وذلك العذاب العظيم؟ فكان الجواب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾ الآية.

مَن عوقِبَ فبغضبٍ أو عذابٍ مِنَ الله بما اقترفَه

سِرُّ التّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عبّر القرآنُ الكريم باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ فـ"الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة، واستحقاقهم خِذْلان الله بكفرهم"[4]، ومما توحي به الإشارةُ للبعيد – بلام البعد – خطورة المشار إليه، وشدّته على من يستوجبه بعمله.

شِدّة العذاب وهولُه وخطورةُ وقْعِه على مَن استحقّه

معنى الباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمُ﴾:

الباء في قول الله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ تصرِّح بسببيَّة استحقاق

ما يَحُلُّ بالعبد فبسبب ما كسبت يداه

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 684.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 160.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 296.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 637.

مَن كفر بعد إيمانه وشرح بالكفر صدرًا غضبَ اللّه تعالى وعذابه العظيم؛ "فما استحقّوه من الغضب والعذاب كائن لهم بسبب استحبابهمُ الدنيا على الآخرة"[1]، و"هو تكسُّبٌ منهم عُلِّق به العقاب"[2]، وليس ظلمًا وقع عليهم.

نُكْتَةُ التّعبير بالحبّ في قوله: ﴿ٱسْتَحَبُّواْ﴾:

من طابت نفسُه بالكفر تخطَّى مستوى الرضا به

عبّر القرآن الكريم بالاستحباب في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ دون الرضا كما في قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: 7]؛ لأنه إذا كان الاستحباب يفوق الحبَّ ويتجاوزه إلى الإيثار، فإنه كذلك يفوق الرضا ويتجاوزه، فـ "الحب يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة جميعًا"[3]، والرضا قد يكون مع مخالفة الطباع، ويوافق الحكمة، كأن يَرضى المبتلى بالابتلاء ينزل به، لكن طبعه لا يميل إليه.

و"الإنسان قد يفضل شيئًا لا لحبّه بل للمصلحة، ولكن هؤلاء لم يقدموا الدنيا لمجرد المصلحة فقط، بل قدموها من فرط حبهم لها"[4]، وقد عبّر عنه القرآن بقوله: ﴿ٱسْتَحَبُّواْ﴾، "وحبّهم هذا ناشئٌ من بغضهم للآخرة وما يترتّب على ذلك من إيمان؛ ولذلك ارتدّوا"[5].

براعةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿ٱسْتَحَبُّواْ﴾:

الحبُّ الطّبيعيّ فِطْرةٌ، والاستحبابُ تَكَلُّفٌ

عبّر القرآن الكريم بقوله: ﴿ٱسْتَحَبُّواْ﴾ دون (أحبوا)؛ لوجود فرق بينهما في الاستعمال؛ ففعل (أحبّوا)، يعبَّر به مجرّدًا من السين والتاء حينما يكون الحب طبيعيًّا في مجاله المسموح، أو المُتَصَوَّر الممكن، أما الفعل ﴿ٱسْتَحَبُّواْ﴾ فيُترجِمُ عن تكلّف الحبّ الشديد،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 600.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 600.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 174.
(4) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 215.
(5) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 215.

والتعلُّق الذي يفوق حدود الخيال؛ فهم لم يحبوا فقط، بل طلبوا الحب للدنيا طلبًا؛ زيادة في المبالغة؛ لذلك كان التعبير بـ "استحبوا مبالغة في (أحبوا)، مثل استأخر واستكان"[1].

ومما يذكر في سر التعبير أنّ الاستحباب على وزن استفعال من المحبة؛ لأنّ المُؤْثِرَ للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر[2]، ولأن الاستحباب يدل على شدَّة كَلَف الكافرين بالدنيا، إلى درجة إيثارها على ما عند الله تعالى، ويدل أيضًا على أنهم عادوا إلى الكفر الذي كانوا فيه وأنِسوا به كما يأنس الغريب بلقاء أهله بعد طول غياب[3].

سِرّ ترتيبِ العذاب على استحباب الدُّنيا على الآخرة:

حُبُّ الدّنيا رأسُ كلِّ خطيئة

رتَّب القرآن الكريم الغضب والعذاب الأليم للكافرين الذين ارتدّوا بعد إيمانهم، وطابت نفوسهم لاستحبابهم للدنيا وغفلتهم عن الآخرة، ومن كان كذلك استحقَّ هذا العقاب؛ لأنه أوقع نفسه في المهالك؛ لأن الحياة الدنيا موصوفة بصفات مذمومة كثيرة، العاقل ينفر منها "أَحَدُها: أنَّ بِسَبَبِ هَذِهِ الحَياةِ انْفَتَحَتْ أبْوابُ الآلام والأسْقام والغُموم والهُموم والمَخاوِف والأحْزان، وثانيها: أنَّ هَذِهِ اللَّذّاتِ في الحَقيقَةِ لا حاصِلَ لَها إلّا دَفْعُ الآلام، بِخِلافِ اللَّذّاتِ الرّوحانيَّةِ فإنَّها في أنْفُسِها لَذّاتٌ وسَعاداتٌ، وثالِثُها: أنَّ سَعاداتِ هَذِهِ الحَياةِ مُنَغَّصَةٌ بسبب الانقطاع والانْقِراضِ والانْقِضاء، ورابِعُها: أنَّها حَقيرَةٌ قَليلَةٌ، وبالجُملَةِ فلا يُحِبُّ هَذِهِ الحَياةَ إلّا مَنْ كانَ غافِلًا عَنْ مَعايِبِها، وكانَ غافِلًا عَنْ فضائِلِ الحَياةِ الرّوحانيَّةِ الأُخْرَويَّةِ، ولِذَلِكَ قالَ تَعالَى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: 17]، فهَذِهِ الكَلِمَةُ جامِعَةٌ لِكُلِّ ما ذَكَرْناه"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 296.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 537.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 378.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 60.

بلاغةُ تعريفِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾:

الحياةُ الدُّنيا ومتاعها نهايةُ طموحِ الكافرين

دلَّ تعريف ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بأداة الاستغراق والاستيعاب (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ على عشق الكافرين لها، واستمساكِهم بكلّ ما يمكن أن يجمعوه منها من مال وولد وجاه، ويقرر إيثارهم إياها على رضوان الله تعالى، فكأنها نهاية كل طموحهم؛ فلا شيء يشغلهم إلا الحياة الدنيا، وذلك الخسران المبين.

سِر وصْف ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

تزهيدُ المؤمنين فيها، وفي الحرص عليها

سميت الدنيا بهذا الاسم لقربها، نقول: دانَيْت بين الأمرين؛ إذ قربت بينهما، ومن معانيها (الدنيء)، أي: الحقير؛ لذلك كشف النَّظم الكريم بوصفه ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ عن أنها من القِصَر والدنوِّ والدناءة والحقارة إذا أُخِذتْ مِن غير حلِّها، وأُنْفِقت في غير حقها، ولأنّ الدنيا بهذا الهوان على الله تعالى منحها من يحب ومن لا يحب، وفي الحديث الشريف: "وَلَوْ كانَتِ الدُّنْيا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعوضَةٍ ما سَقَى مِنْها كافِرًا شَرْبَةَ ماءٍ"[1]، وفي ذلك تزهيد للمؤمنين وتنفيرٌ من التعلّق بها والحرص عليها.

عِلّةُ تعديةِ الفعلِ ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ بـ ﴿عَلَى﴾:

منْ صفات الكفّار تفضيلُ نفعِ الدّنيا على نفعِ الآخرة

تعدية الفعل ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ بحرف الجر ﴿عَلَى﴾ يُلمح إلى أنَّ هؤلاء فضَّلوا الحياة الدنيا وآثروها على الحياة الآخرة، ولا يعطي هذه الدلالةَ التعبيرُ بكلمة (دون) - مثلًا - لو قيل: (استحبوا الحياة الدنيا دون الآخرة)، وتدل التعدية على تضمين الفعل ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ معاني أفعال أخرى إضافةً إلى معناه المباشر، من تلك الأفعال: أنهم (آثروا، واختاروا، وفضّلوا)، فمعنى ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ (فَضَّلوا)، فعدّي بحرف ﴿عَلَى﴾، أي: لأنهم قدَّموا نفع الدنيا على نفع الآخرة.

والذي حقَّق التضمين وهيّأ له: تَعْدية فعل الاستحباب بحرف

(1) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (2320)، وابن ماجه في سننه، برقم: (4110).

الجرّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾؛ ذلك أنّ الاستحباب يتعدَّى بنفسه؛ فلما جاءت ﴿عَلَى﴾ دلَّ مجيئها على إرادة التضمين.

وقد جَمَعَ النظم الكريم بهذا التضمين بين الوَصْفَيْن: استحبّوا وفضلوا؛ "ليَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أنَّ الاسْتِحْبابَ لِلدُّنْيا وحْدَهُ لا يَكونُ مَذْمومًا إلّا بَعْدَ أنْ يُضافَ إلَيْهِ إيثارُها عَلَى الآخِرَةِ"[1].

سِرُّ التّعبير بـ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ دون الحياة (العليا):

الدّارُ الآخرةِ هي حياةُ الخلود الدّائم

يُنبّه النظمُ الكريم بإيثار وصف ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾؛ إلى أنها هي الأبقى، التي لا دارَ بعدها، وأنها الأَوْلى بالعناية لو كانوا يفقهون، ولا يُفيد وصْفُ (العليا) معنى الخلود الدائم المأخوذ من الآخرة، ولأنّ وصف ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ مضمَّنٌ وصفَ (العليا)، وذلك بِقرينة مقابلته لِوصف ﴿ٱلدُّنْيَا﴾.

بلاغةُ الاكتفاءِ بذِكر الوصف وحَذفِ الموصوف:

تآزرُ خصائصِ التّراكيبِ على بيانِ ضلالِ الكفّار

جاء التعبير القرآني بذكر الصفة ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ دون ذكر الموصوف (الحياة)، اتِّساقًا مع مُعْتقَد الكافر المنكِر لوجودها أصلًا، فطواها الذكرُ الحكيم في تعبير دقيقٍ عن معتقدهم الضالّ؛ فتآزرت خصائص التراكيب على بيان ضلالهم البعيد.

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾:

جمعُ أسبابِ خِذْلانِ اللهِ للكافرين

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ واو العطف، وفي العطف بها "إشارة إلى سبب آخر من أسباب وقوع الكافرين تحت طائلة هذا الوعيد بعد ذكر السبب السابق المذكور في قوله: ﴿ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾، وهو أنهم من جبلّة مظلمة، لا تقبل النور، ولا تتهدّى إليه، فكان أنْ أضلّهم الله، وتركهم في ظلمات يعمهون"[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 61.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 378.

وفي العطف "إشارةٌ إلى أنّ الآية جَمعت بين الكسب والاختراع، وهذا عقيدة أهل السنة"[1].

دلالة التّعبير بالاسميّة:

حِرمانُ الكافرين مِن هدايات اللهِ قانونٌ ثابت

إيثار القرآن صيغة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يناسب المعنى المقصود، وهو أنّ ذلك قانون سماويٌّ ثابت، ومبدأ شرعيّ لا يتبدّل في حرمان الكافرين من هدايات الله تعالى.

سِرُّ التّعبير بإظهار لفظ الجلالة:

تربيةُ المهابة في القلوب وتأكيدُ حُكمِ الله

لإظهار اسم الجلالة في مَواضِع إضماره إشاراتٌ عظيمة في كل موضع بحسبه؛ وذلك لِما للعَلَم الدّالّ على الذّات العَليّة من مهابة وجلال؛ فهنا أُعيد ذِكْر اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ دون الإضمار (وأنه) بعد تقدُّم ذِكْرِه في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ ... ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك "لتربية المهابة"[2]، وتدعيم الحُكم وتقريره.

دلالةُ نفي الهداية:

حرمان المرتدّ من هداية الله له

نفى القرآن هداية المرتدّين في قوله: "﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وذلك لإقْدامهم على ذلك الارتداد"[3] بسبب اتباعهم للشيطان؛ فسدَّ عليهم كل مسالك الهداية، والمعنى كما يقول أبو السعود: "لا يريد هدايتهم"[4].

سِرُّ النّفي بـ ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَهۡدِي﴾:

مِنحةُ الهداية ممكنةٌ لمن تاب وأناب

نَفَى النظمُ الكريم هداية الله تعالى عن الكافرين بـ ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دون (لن)؛ لأن النفيّ بـ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 600.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 143.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 276.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 588.

﴿لَا﴾ يُبْقي الهدايةَ ممكنةً لهؤلاء الكفار إن تابوا إلى الله تعالى وأنابوا، ويترك لهم باب التوبة - ما بقوا على قيد الحياة - مفتوحًا.

ولم يغلق باب الأمل بـ (لن) التي تبعث اليأس، ولا تُناسب روح الدين الحنيف السّمح؛ لأنها تقطع بالحكم المستقبلي على الكفار بالحرمان من هدايات الله تعالى، والإسلام يحُثُّ دائمًا على الإنابة إلى الله الرحمن الرحيم ﷻ.

عِلّةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾:

الدّلالةُ على أنّ الكفر وصفٌ للنّاكبين جميعًا

كان يُمكن إيجازُ العبارة بِحذف الموصوفِ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، والتركيز على الوصف ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كما سبق قريبًا في حذف الموصوف (الحياة) والاكتفاء بذكر الوصف ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾، لكنّ إيراد "لفظ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ هنا للدلالة على أنَّ مَن كان هذا شأنهم فقد عُرفوا به، وتمكّن منهم، وصار سَجيّة حتى كأنهم يجمعهم هذا الوصف"[1].

و"جريان وصفٍ أو خبر على لفظ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ يؤذن بأنّه من مقومات قوميَّتهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: 12]"[2]، أي: "أن المقصودين هم مَن أصبح الكفر صفتهم التي عليها يجتمعون، ولأجل هذه الصفة المشتركة استحقّوا إطلاق (القوم) عليهم"[3].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون (الذين كفروا):

ثبوتُ الكافر على كُفرِه يحولُ بينَه وبينَ هداية الله

إيثارُ التّعبيرِ بالاسمية في ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون الفعلية في (الذين كفروا)، يُلمح إلى أنّهم "تمكّنوا من الكفر وأصبح صفتَهم التي عليها يجتمعون"[4]، كما تمكّن منهم الكفر وتغلغل في قلوبهم، وأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 296.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 215.
(4) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 215.

الكفر صار وصفًا لازمًا لهم، ثابتًا دائمًا فيهم، وأنه سيبقى حائلًا بينهم وبين هدايات اللّه ﷻ.

دلالةُ (أل) في الكافرين:

أقبحُ الكفرِ كفرُ مَـنِ ارتــدَّ بعد الإيمان

(أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إمّا أن تحمل على العموم ويكون المعنى أنه لا يهديهم من حيث إنهم كفار؛ وإمّا أنه عموم يراد به الخصوص، والمقصود به هذا الصنف الذين بلغوا في الكفر أقبحه، وذلك لارتدادهم بعد الإيمان، وأنَّ كفرهم هو الكفر الذي لا يشبهه أو حتى يقاربه كفر، والسياق يقتضي تلك الدلالة بوضوح؛ لأنّ هؤلاء قد تجلّى لهم إعجاز (آيات اللّه) تعالى، ولامس اليقينُ بصدق الرسول ﷺ وصدق رسالته قلوبَهم، ثم فرّطوا في إيمانهم مقابل ثمن قليل مهما كانت المكاسب التي نالوها بكفرهم.

غرضُ تكرارِ نفي الهداية:

حـرمـانُ الـكـافـرِ هدايةَ الإرشادِ أو التوفيقِ خسرانٌ مبين

نفى القرآن الكريم الهداية عن الكافرين في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ ليقرِّر قانونًا عامًّا، وسنّة إلهية مطّردة في الخلق، فكلُّ كافر يُحرم هداية اللّه تعالى سواء كانت هداية إرشاد، أو هداية معونة وتوفيق؛ قد حُرم الخير كله، وخسر خسرانًا مبينًا.

أما نفي الهداية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ فكان تهديدًا لمن كذَبوا في اتهامهم الذكرَ الحكيم بأنه من تعليم بشر أعجميّ، وعلى ذلك؛ يكون نفي الهداية في تلك الآية على الخصوص في الذين زعموا أنّ القرآن افتراه رسول اللّه ﷺ، وأنّه من تعاليم البشر.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»